الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية

في عصر شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله تعالى.

وموقفه منها

د. ماجد الدرويش

تعتبر الفترة التي عاشها شيخ الإسلام مصطفى صبري (١٢٨٦ – ١٣٧٣هـ/ ١٨٦٩-١٩٥٤م) أكثر فترة مضطربة في حياة الدولة العثمانية حيث كانت التحولات الكبيرة في تاريخها من خلافة وسلطنة إلى جمهورية، وهي تغييرات كان لها الأثر الكبير على كل مناحي الحياة السياسية والفكرية والدينية.

وقد شهدت هذه الفترة تحولات ثلاثة كبيرة:

أولها نظام المشروطية، ويراد به الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، والذي كان يهدف في الأساس إلى تقييد السلطة المطلقة التي كانت للسلاطين، إضافة إلى إعطاء الأقليات العرقية والأثنية امتيازات جديدة على التي أعطاهم إياها خطا كلخانة الأول والثاني زمن السلطان عبد المجيد. وتم على أساسه انتخاب مجلس المبعوثات (النواب) الذي تبين بعد ذلك من كثرة خلافات أعضائه أنه مجرد أداة لجهات خارجية، مما حمل السلطان عبد الحميد على تعطيله قرابة ثلاثين سنة. وتعرف هذه الفترة بالمشروطية الأولى.

ثم بعد ذلك أعاد السلطان العمل بالدستور سنة ١٩٠٨م تحت الضغط الشعبي والخارجي، وهو ما يعرف بالمشروطية الثانية.

وفي هذه الفترة بدأ نجم الشيخ مصطفى صبري رحمه الله تعالى يلمع، ذلك أنه انتخب في مجلس المبعوثان ممثلا عن بلدته (توقاد) في الأناضول، فبرز اسمه، واشتهرت مقدرته الخطابية، وعرف فضله وعِلْمُهِ وقدرته على الحجاج بالحق ودفع الباطل بقوة المنطق.

وكان الهدف المعلن من المشروطية الثانية الحفاظ على كيان الدولة من التدخلات الأجنبية، والسعي لمنع أي انفصال داخلي يمس الأخوة العثمانية، لكن الذي حصل عكس ذلك تماما فقد أدى إعلان المشروطية الثانية إلى عزل السلطان عبد الحميد، وانتقال زمام السلطة إلى جمعية الاتحاد والترقي التي

كانت تتجه أكثر فأكثر ناحية الغرب مبتعدة عن العمق العربي والإسلامي. كما خسرت الدولة بعدها البوسنة والهرسك حيث أعلنت النمسا ضمها إليها، وأعلنت بلغاريا انفصالها عن الدولة، كما أعلنت جزيرة كريت التحاقها باليونان.

وقد اتسم حكم الاتحاديين بالاستبداد وقمع كل المخالفين، ثم بالدعوة إلى الجامعة الطورانية التي كانت الممهدة لنشوء الدعوة إلى القومية العربية، والتي كانت بديلا عن دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية. كما اتسم عصرهم بالمركزية في الحكم بعد دمج كل الأقليات والعرقيات في مفهوم الدولة. وذلك للسيطرة على كل شيء فيها.

وفي هذه الفترة اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، وبينما كان السلطان عبد الحميد يخطط قبيل خلعه للنأي بالسلطنة عن الحرب الكونية التي كانت بوادرها تلوح بالأفق، دخلت تركيا بقيادة الاتحاد والترقي الحرب مع ألمانيا وخرجت منهزمة معها، وكان ذلك سببا في خسارتها الكثير من أراضيها، بل وكادت اسطانبول نفسها أن تسقط في يد الإنكليز لولا استبسال العثمانيين، ولا أقول الأتراك، في معركة مضيق غاليبولي (جناق أو شناق قلعه) ، وتعرف عند الإنكليز بمعركة مضيق الدردنيل.

كانت هذه المعركة تهدف إلى غزو إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية، ومن ثم الدخول إلى الجزء الشمالي الشرقي من تركيا، لمساندة روسيا ضد القوات الألمانية، حيث طلبت روسيا من فرنسا وبريطانيا مساعدتها ضد القوات الألمانية في الجانب الشرقي، بعد أن تكبَّدت القوات الروسية خسائر كبيرة أمام الألمان في الحرب العالمية الأولى.

وفكرة اقتحام الدرنيل ترجع أصلاً إلى السياسي الإنكليزي المخضرم ونستون تشرشل وكان وزيرًا للبحرية البريطانية حتى ١٩١٥م، وقد فشلت الحملة البحرية البريطانية (١٨ مارس ١٩١٥م) حين اصطدم الأسطول البريطاني بحقل خفي من الألغام في مياه الدردنيل، وأصيب بأضرار بالغة بسبب ذلك، وكان لهذا الإخفاق دوي هائل وصدى واسع في جميع أنحاء العالم، وتم تنحية تشرشل عن منصبه بالبحرية البريطانية لقراره الكارثي بخوض معركة غاليبولي.

ومن ثمَّ قررت جيوش بريطانيا وفرنسا وأستراليا ونيوزيلندا القيام بحملة برية على المضايق، وفي جمادى الآخرة ١٣٣٣هـ / أبريل ١٩١٥م نزلت الجيوش الإنجليزية والأسترالية والنيوزلندية بعدَّة جهات في شبه جزيرة غاليبولي، ونزلت قوة فرنسية على الشاطئ الآسيوي. وكانت الأراضي التي نزلوها تنحدر تدريجيا

نحو ساحل البحر، فانتهز الأتراك العثمانيون هذه الفرصة، واصطادوا القوات البريطانية والفرنسية المهاجمة، وكانوا قد أكملوا استعدادهم لمواجهة هذا النزول المتوقع، وأظهروا بسالة فائقة وشجاعة نادرة أعادت إلى الأذهان أمجاد العسكرية العثمانية.

وكان من بين الضباط الأتراك الذين أشرفوا على الجيش التركي مصطفى كمال، حيث كان قائدا للفرقة التاسعة عشرة في شناق قلعة، وقد لمع نجمه في هذه المعركة بعد أن أنزل هزيمة مدوية لمرتين متتاليتين بالقوات البريطانية على شواطئ غاليبولي.

أدى هذا النصر العثماني الكبير – ونقول العثماني وليس التركي لأن المقاتلين كانوا من سائر البلاد الإسلامية – إلى إنقاذ إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية من السقوط في أيدي قوات الاحتلال الأجنبي، وفي الوقت نفسه جعل القوات البريطانية والفرنسية تفكر في الانسحاب من شبه جزيرة جاليبولي بعد أن فقدت الأمل في الاستيلاء على منطقة المضايق، وبدأت بالفعل الانسحاب في (١٠ من صفر ١٣٣٤ هـ / ١٨ كانون الأول ١٩١٥م)، فقد كان الفشل مزدوجا في البر والبحر.

وهكذا انحسرت هذه المعركة التاريخية عن نصر للدولة العثمانية دفعت ثمنه أكثر من (٢٥٠,٠٠٠) مئتين وخمسين ألف شهيد، فيما تكبدت القوات الغازية العدد نفسه من القتلى والجرحى.

ونتيجة لهذا الانتصار الباهر الذي اعتبر (آخر انتصارات المسلمين على الكفار) تمت ترقية مصطفى كمال إلى رتبة عقيد في عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م ثم رقي إلى رتبة عميد أثناء خدمته في الجبهة الشرقية، وكانت بداية شهرة مصطفى كمال الحقيقية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ومن حسن طالعه أنه كان على علاقة وثيقة بالخليفة الجديد وحيد الدين قبل أن يلي الخلافة، فرقاه لرتبة مفتش عام للجيوش وزوده بصلاحيات واسعة، فكافأه على ذلك بتشويه صورته ودفعه إلى الاستقالة، ثم بعد أيام بإلغاء الخلافة.

كما شهدت هذه الفترة ما عرف بحرب الاستقلال، (بالتركية: Kurtuluş Savaşı): (١٩ أيار ١٩١٩ – ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٣) وكانت عبارة عن مقاومة عسكرية وسياسية قادها القوميون الأتراك ضد تقسيم قوات الحلفاء للإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وقد بلغت ذروتها في الأناضول بعد تشكيل الجمعية الوطنية الكبرى التي عبأت الموارد بنجاح تحت قيادة مصطفى كمال.

بعد القيام بحملات عسكرية لصد الهجمات اليونانية والأرمينية والفرنسية، ومنها الانتصار في معركة (سقاريا) سنة ١٩٢٢م، أَجبرَ الثوارُ الأتراكُ الحلفاءَ على التخلي عن معاهدة سيفر[١] والتفاوض على معاهدة لوزان[٢] في تموز / يوليو ١٩٢٣، والسماح للأتراك بتشكيل جمهورية تركيا في الأناضول وتراقيا الشرقية في أكتوبر ١٩٢٣ وضم جزء من الأراضي العربية السورية عرف باسم الأقاليم السورية الشمالية. وكانت النتيجة أن تأسيس الحركة الوطنية التركية أدى إلى نهاية العهد العثماني.

---

[١] – معاهدة سيفر: وتسمى أيضا معاهدة الصلح قبلت بها تركيا العثمانية في ١٠ أغسطس/آب عام ١٩٢٠ عقب الحرب العالمية الأولى بين الدولة العثمانية وقوات الحلفاء، لكنها لم تُبْرَمْ على الإطلاق، بل إن الحركة القومية التركية بزعامة مصطفى كمال؛ بعد أن تولت الحكم في تركيا في ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٢٣؛ رفضت ما جاء في هذه المعاهدة، واعتبرت أن بنودها تمثل ظلما وإجحافا بالدولة التركية، وذلك لأنها أجبرت على التنازل عن مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت واقعة تحت نفوذها، وقد نصت هذه المعاهدة على:

منح تراقيا والجزر التركية الواقعة في بحر إيجه لليونان.

الاعتراف بكل من سوريا والعراق كمناطق خاضعة للانتداب.

الاعتراف باستقلال شبه الجزيرة العربية.

الاعتراف باستقلال أرمينيا.

اعتبار مضائق البسفور والدردنيل مناطق مجردة من السلاح وتحت إدارة عصبة الأمم.

وفيما يتعلق ببنود المعاهدة الخاصة بالشأن الكردي فقد نصت على:

حصول كردستان على الاستقلال حسب البندين ٦٢ و ٦٣ من الفقرة الثالثة، والسماح لولاية الموصل بالانضمام إلى كردستان استنادا إلى البند ٦٢ وكان نص هذا البند: "إذا حدث خلال سنة من تصديق هذه الاتفاقية أن تقدم الكرد القاطنون في المنطقة التي حددتها المادة (٦٢) إلى عصبة الأمم قائلين إن غالبية سكان هذه المنطقة ينشدون الاستقلال عن تركيا، وفي حالة اعتراف عصبة الأمم بأن هؤلاء السكان أكفاء للعيش في حياة مستقلة وتوصيتها بمنح هذا الاستقلال، فإن تركيا تتعهد بقبول هذه التوصية وتتخلى عن كل حق في هذه المنطقة. وستكون الإجراءات التفصيلية لتخلي تركيا عن هذه الحقوق موضوعا لاتفاقية منفصلة تعقد بين كبار الحلفاء وبين تركيا".

وقد رفضت حكومة أتاتورك قبول هذه المعاهدة وعملت على إخراج اليونانيين من آسيا الصغرى وأصرت على تسوية جديدة تحققت لها بالفعل في معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ التي تجاهلت ما أقرته معاهدة سيفر من حقوق للكرد. (مركز الدراسات: الجزيرة نت).

[٢] – معاهدة لوزان وتعرف أحيانا باسم "معاهدة لوزان الثانية" (تم توقيعها في ٢٤ يوليو/تموز ١٩٢٣) كانت معاهدة سلام وقعت في لوزان، سويسرا تم على إثرها تسوية وضع الأناضول وتراقيا الشرقية (القسم الأوروبي من تركيا حاليا) في الدولة العثمانية وذلك بإبطال معاهدة سيفر التي وقعتها الدولة العثمانية كنتيجة لحرب الاستقلال التركية بين قوات حلفاء الحرب العالمية الأولى والجمعية الوطنية العليا في تركيا (الحركة القومية التركية) بقيادة مصطفى كمال أتاتورك. قادت المعاهدة إلى اعتراف دولي بجمهورية تركيا التي ورثت الإمبراطورية العثمانية.

وبعد هذه الانتصارات، أصبح مصطفى كمال بطل الأمة القومي، والمتحكم الفعلي في البلاد، وأنصاره يسيطرون على مجلس النواب والمجالس المحلية، وبخاصة عندما أعلن للناس بنود معاهدة سيفر التي أُجبر السلطان وحيد الدين على توقيعها تحت التهديد الإنجليزي باحتلال إستانبول، فأظهره ذلك مظهر المتنازل عن الدولة، بينما ظهر مصطفى كمال بصورة (الغازي) المقاتل لأجل الدولة، حتى إن الشاعر الكبير أحمد بك شوقي كتب قصيدة من ثمانية وثمانين بيتا يشبه فيها انتصار مصطفى كمال على اليونان بانتصارات خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي، بل ويتذكر بها أمجاد بدر وحطين. يقول في مطلع هذه القصيدة:

الله أكبرُ كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب

صلحٌ عزيزٌ على حربٍ مظفَّرة ... فالسيف في غمده والحق في النَّصَبِ

يا حسن أمنية في السيف ما كذبت ... وطيبي أمنية في الرأي لم تخب

خطاك في الحق كانت كلَّها كرما ... وأنت أكرمُ في حقن الدم السرب

حذوت حرب الصلاحيين في زمن ... فيه القتال بلا شرع ولا أدب

لم يأت سيفك فحشاء، ولا هتكت ... قناك من حرمة الرهبان والصُّلُبِ

سئلت سلما على نصر فجدت بها ... ولو سئلت بغير النصر لم تجب

إلى أن يقول:

لما أتيتَ ببدر من مطالعها ... تلفَّتَ البيتُ في الأستار والحجب

وهشت الروضة الفيحاء ضاحكة ... إن المنورة المسكية الترب

ومست الدار أزكى طيبها وأتت ... باب الرسول فمست أشرف العتب

وأَرَّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجاز وكم ... قضى الليالي لم ينعم ولم يطب

وازَّيَّنَتْ أمهات الشرق واستبقت ... مهارج الفتح في المؤشية القشب

هزت دمشقَ بني أيوب فانتبهوا ... يهنئون بني حمدان في حلب

ومسلمو الهند والهندوس في جذل ... وشيجة وحواها الشرق في نسب

من كل ضاحية ترمي بمكتحل ... إلى مكانك أو ترمي بمختضب

تقول لولا الفتى التركيُّ حلَّ بنا يوم كيوم يهود كان عن كثب

كما كتب قصيدة يهجو بها أمير المؤمنين السلطان وحيد الدين خان، ويكيل له بها الشتائم، ونشرت على صفحات جريدة الأهرام، ومما جاء فيها:

ووليًّا للطواغيت بها كان يُدعى بأمير المؤمنين

ألبس الإسلام ذلا وكسا خُلفاء الله أثواب القطين

إلى أبيات كلها في ذم السلطان وتحميله مسؤولية ما آلت إليه أمور الدولة العثمانية، ومعتبرا أن مصطفى كمال قد أنهى حكم الفرد المتسلط (وحيد الدين)، حيث قال:

مَحَقَ الفَرْدَ وأَلْغى حكمه إِنَ حكمَ الفرد مرذول لعين

فردَّ عليه شيخ الإسلام بأبيات سبعة على نفس الوزن والقافية؛ نشرها في صحيفة المقطم العدد (١٠٥٣٣)؛ هاجم فيها شوقي هجوما عنيفا، كما شنع فيها بمصطفى كمال، معتبرا أن كل سيئات الظالمين السابقة ليست بشيء إذا قيست بسيئاته، ، فقال:

قلتم في رجل ذَكَّرنا حسنات الظالمين الأولين

«محَقَ الفَرْدَ وألغى حكمه إن حكم الفرد مرذولٌ لعين»

ويقول العبدُ تعقيبا لكمْ لعنةُ الله عليكم، كاذبين

أَينَ حكم الفرد بل مِنْ عدَمٍ أوجدوه وهو كالقرد مهين

ليس ما ألغاه حُكمَ الفرد بل حكم شرع رب العالمين

وَضَحَ الصُّبحُ لذي عينين يا حاطب الليل فذا الخبطُ يشين

وكفى ذا الهُزءِ بالحقِّ على رغم أنف المسلمين الغافلين

وأمام هذا الضغط الشعبي الهادر الذي اكتسبه مصطفى كمال، اضطر وحيد الدين للاستقالة، وحل مكانه عبد المجيد الثاني والذي لم يمكث سوى ثلاثة أيام، أعلن بعدها مصطفى كمال في ٢٧ رجب١٣٤١هـ/ ٣ آذار ١٩٢٣م إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية. **وكان هذا التحول الثاني في المجتمع العثماني التركي.**

فلما أعلن إلغاء الخلافة نزل الخبر نزول الصاعقة على العالم الإسلامي، وبخاصة أنهم كانوا يأملون بأن يقوم مصطفى كمال نفسه بمقام الخلافة.

وعبر عن هذا الذهول خير تعبير أيضا الشاعر أحمد بك شوقي الذي استيقظ من غفلته التي وصفه بها شيخ الإسلام، فكتب قصيدة من عيون الرثاء السياسي الذي يبدي حقيقة عجز الأمة، رثى فيها الخلافة، ووجه اللوم لمصطفى كمال، وبين الآثار السيئة التي سوف تنجم عن إلغاء الخلافة. فمما قاله في مطلعها:

عادَت أَغاني العُرسِ رَجعَ نُواحِ وَنُعيتِ بَينَ مَعالِمِ الأَفراحِ
كُفِّنتِ في لَيلِ الزَفافِ بِثَوبِهِ وَدُفِنتِ عِندَ تَبَلُّجِ الإِصباحِ
شُيِّعتِ مِن هَلَعٍ بِعَبرَةِ ضاحِكٍ في كُلِّ ناحِيَةٍ وَسَكرَةِ صاحِ
ضَجَّت عَلَيكِ مَآذِنٌ وَمَنابِرٌ وَبَكَت عَلَيكَ مَمالِكٌ وَنَواحِ
الهِندُ والِهَةٌ وَمِصرُ حَزينَةٌ تَبكي عَلَيكِ بِمَدمَعٍ سَحّاحِ
وَالشامُ تَسأَلُ وَالعِراقُ وَفارِسٌ أَمَحا مِنَ الأَرضِ الخِلافَةَ ماحِ

ولأن (الخلافة) ليست مجرد شعار، وإنما منظومة قيمية تقوم على أساسٍ من شرع الله سبحانه، تهدف إلى النظر فيما يصلح أمور الناس في المعاش والمعاد، كما قال القلقشندي:" الْخِلَافَةُ هِيَ حَظِيرَة الاسلام، ومحيط دائرته، ومربع رعاياه، ومرتع سائمته، بهَا يُحفَظُ الدّينُ ويُحمى، وتُصان بَيْضَة الاسلام وتَسْكُنُ الدَّهما، وتقام الْحُدُود فتمنع الْمَحَارِم عَن الانتهاك، وَتحفظ الْفروج فتصان الْأَنْسَاب عَن الِاخْتِلَاط والاشتباك، وتُحصن الثغور فَلَا تطرق، ويذاد عَن الْحُرُم فَلَا تُقرع جنَّة جماها وَلَا ترشق"، لأن الخلافة هي كل ذلك، نجده يتحسر على تفريط الناس بهذه (المنظومة) التي شبهها بالقلادة الجامعة لعلائق النفائس من لآلئ القيم، ومكارم الأخلاق، وحفظ الحقوق، بأبيات تجعل العين تسيل دما، والقلب يتفطر أسىً:

هَتَكوا، بِأَيديهِمْ، مُلاءَةَ فَخرِهِمْ مَوشِيَّةً بِمَواهِبِ الفَتّاحِ
نَزَعوا عَنِ الأَعناقِ خَيرَ قِلادَةٍ وَنَضَوا عَنِ الأَعطافِ خَيرَ وِشاحِ
حَسَبٌ أَتى طولُ اللَيالي دونَهُ قَد طاحَ بَينَ عَشِيَّةٍ وَصَباحِ

من هنا كان (لمؤسسة الخلافة) عند المسلمين بعامة، وعند علمائهم بخاصة، هذه المكانة المرموقة، وكانوا يرون أن في ذهابها ذهاب الأمن والانتظام العام وضياع للحقوق وانتشار الفوضى تحت شعارات كثيرة، نجد هذا المعنى في قول أمير الشعر:

وَعَلاقَةٌ فُصِمَت عُرى أَسبابِها كانَت أَبَرَّ عَلائِقِ الأَرواحِ
جَمَعَتْ عَلى البِرِّ الحُضورَ وَرُبَّما جَمَعَتْ عَلَيهِ سَرائِرَ النُزّاحِ
نَظَمَتْ صُفوفَ المُسلِمينَ وَخَطوَهُمْ في كُلِّ غَدوَةِ جُمعَةٍ وَرَواحِ

وبسبب انفراط هذا العقد تنبأ أن الأمور ستشهد دعوات باطلات باسم الدين، وفتن تطيش فيها عقول الناس، وينغمسون فيها غمسا، بالإضافة إلى فتاوى المتزلفين الطامحين إلى القرب من السلاطين، وسيكون من آثار ذلك:

- ظهور دعوات باطلة في كل أرض من بلاد المسلمين، يُدعى فيها الناسُ إلى اتباع أصحابها على حساب اتباع الشرع.

- بروز الفتن التي تطيش معها العقول ، وتعطل فيها الأحكام ، ويُمتهَنُ فيها أحكام الدين ، وتعم الفوضى والشخصانية والعصبية الجاهلية البغيضة..

- تزلف بعض من ينتسب للعلم إلى السلاطين ومتابعتهم على أهوائهم ، والاجتهاد في تأصيل أهوائهم وتبريرها ، كل ذلك إما طمعا بجائزة وإما خوفا على مصير .. ولو كان على حساب مصير أمة..

فَلتَسمَعُنَّ بِكُلِّ أَرضٍ داعِيًا يَدعو إِلى الكَذّابِ أَو لِسَجاحِ
وَلتَشهَدُنَّ بِكُلِّ أَرضٍ فِتنَةً فيها يُباعُ الدينُ بَيعَ سَماحِ
يُفتى عَلى ذَهَبِ المُعِزِّ وَسَيفِهِ وَهَوى النُفوسِ وَحِقدِها المِلحاحِ .

ثم أخذ يلوم نفسه أليس هو من مدح مصطفى كمال تلك المدائح التي اختصر فيها كل تاريخ الإسلام المجيد؟

فقال مستدركا:

أَستَغفِرُ الأَخلاقَ لَستُ بِجاحِدٍ مَن كُنتُ أَدفَعُ دونَهُ وَأُلاحي

مالي أُطَوِّقُهُ المَلامَ وَطالَما قَلَّدتُهُ المَأثورَ مِن أَمداحي

هُوَ رُكنُ مَملَكَةٍ وَحائِطُ دَولَةٍ وَقَريعُ شَهباءٍ وَكَبشُ نِطاحِ

أَأَقولُ مَن أَحيا الجَماعَةَ مُلحِدٌ وَأَقولُ مَن رَدَّ الحُقوقَ إِباحي

الحَقُّ أَولى مِن وَلِيِّكَ حُرمَةً وَأَحَقُّ مِنكَ بِنُصرَةٍ وَكِفاحِ

فَامدَح عَلى الحَقِّ الرِجالَ وَلُمهُمُ أَو خَلِّ عَنكَ مَواقِفَ النُصّاحِ

وقد قامت حركات في وجه الاتحاديين منها ما يدعو إلى القومية العربية في مواجهة القومية الطورانية، وكانت الدول الأوروبية تدعم هذه الحركات.

كما قامت حركات تشكلت من الترك والعرب والأروام الذين يعارضون النزعة الطورانية، فما كان من الشيخ مصطفى صبري إلا أن انضم إلى هذا الحزب، بل كان نائبا للرئيس فيه.

وهكذا انفرط عقد الأمة الواحدة، وتحولت إلى ما أرادوها لها: جماعات عرقية وأثنية وقومية.. وبدأ التفلت من أحكام الشرع، بل محاربة أحكام الشرع، وإقصاء الدين عن مفاصل حياة الناس، وبدأت الحرب ضد كل مظاهر الإسلام: الأذان، اللغة العربية، العمائم، الحجاب، التعليم الديني... وقد توج كل هذا بإلغاء نظام الخلافة وإقامة الجمهورية التركية الأولى.

وبدأ مع هذه المرحلة جهاد الشيخ مصطفى صبري رحمه الله تعالى ضد الكماليين، وبدأ يكتب في الرد على طروحاتهم، حتى سنة ١٩١٣م، حيث ضيقوا عليه حيثما ذهب في البلاد العثمانية، ففر إلى مصر، ومنها إلى بوخارست في أوروبة، لكن بعد دخول الجيوش التركية بوخارست في الحرب الكونية الأولى تم إلقاء القبض عليه وعاد إلى الآستانة معتقلا.

ثم ما لبثت الحرب أن انجلت عن هزيمة لتركيا، ونتج عنها يومها فرار الزعماء الاتحاديين من استانبول، فعاد إلى نشاطه السياسي، وعيّن يومها شيخا للإسلام في عهد وزارة الداماد فريد باشا الأول في العام ١٩١٩م ثم عضوا في مجلس الشيوخ العثماني، كما ناب عن الصدر الأعظم في رئاسة الوزراء أثناء سفره إلى أوروبة للمفاوضات التي كانت بعد الحرب. وظل الوضع هكذا إلى أن استولى الكماليون

على استانبول، فترك تركيا سنة ١٩٢٢م وتوجه إلى مصر مع أهله. **وكان هذا التحول الثالث في تاريخ الدولة العثمانية.**

وقد جرت له أهوال في هجرته، ذكرها تلميذه شيخنا الإمام عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في كتابه: (**صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**)، ولكنها كانت أهون مما لا قاه من جفاء أهل مصر الذين كانوا قد فتنوا بالغازي مصطفى كمال، حتى شبه مصر بسببهم بدار عُبَّادِ الطغاة في قصيدة له، قائلا:

يا دار عُبَّاد الطغاة لا تبجَّحي وغُضي الصوت هونا غُضِّي

ومنها

فررتُ من حكومةٍ تحوَّلَتْ عن دينها وأوغلتْ في النَّقْضِ
وعلَّنت حربا إلى جميع من يأبون بيع عرضهم بالعِرضِ
حكومة المخنَّثين السُّفها من كلِّ عِضٍّ ليس بالمِرْفَضِّ[٣]
وخِلْتُ مصرَ دارُ إسلامٍ بها لمثلي المُقامُ رحبٌ يُرضي
إذا بها قومٌ مَلاقيهُمْ على، إن كان إنسانا، حياءٍ يُغضي
قد ختم الله على قلوبهم وسمعهم، والطَّرْفُ كالمبيضِّ

ومنها

قومٌ هم ومن فررنا منهم كالخلطاء بعضهم من بعضِ

ومنها

شتمُ أمير المؤمنين من هدي لومِ أمير الشعراءِ من دحض
لم يُبْقِ مصطفى كمالٍ فيهم عقلا ولا دينا سليم النَّبْضِ
فضَّ بإزميرَ عُرى عقولهم كجيش يونان بها منفضِّ

ومنها

---

[٣] – العِضُّ: الخبيث الشرس. والمرفض: الذي إذا رآك مظلوما رق لحالك.

هامت به مصرُ كهذا فمحا بلادنا في طولها والعرض

ومصرُ لا غرْوَ إذا ما أولعت بكل فرعون علا في الأرضِ

وهكذا عاش في مصر غربةً حقيقية: نفسية وعلمية ودينية، ومع ذلك فهو راض بكل هذا طالما أنه في سبيل الله تعالى. وقد عبر عن ذلك في قصيدته التي كتبها تعليقا على صوم شيخ الهند غاندي، والتي نشرها تلميذه شيخنا الإمام عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في كتاب (صفحات)، ومما قال فيها:

في سبيل الإسلام ما أنا لاقٍ ولئن مت فليعش هو بعدي

فليعِش رغمَ مُسلمي العَصرِ دينٌ ضيَّعوه ولم يفوه بعهدِ

هذا أقل ما يمكن أن يقال عن الوضع الداخلي في عصر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى. ومن خلاله يمكننا معرفة دقة وصعوبة المرحلة التي مرت بها الدولة في هذه الفترة، فقد كانت رجلا مريضا يلفظ أنفاسه الأخيرة. فقيرا بل مفلسا، الديون تثقل كاهله، والحرب تفرغ أرضه وخزينته، والناس تعيش الضنك بكل ما تعنيه الكلمة..

نظرات الشيخ وتحليلاته لأحداث عصره

تحت هذا العنوان كتب بعض الباحثين في موقع الألوكة دراسة حول عصر شيخ الإسلام، تختصر الحالة التي كانت عليها الدولة في عصره مع نظرة الشيخ للأحداث وأسبابها ونتائجها، أنقلها بتصرف يسير. يقول الباحث:

«تلاحقت الأحداث أثناء حياته وكأنها كانت على موعد معه ليُبدي رأيه فيها، فتَصِلنا عبر مؤلفاته؛ لتنير للمسلم المعاصر طريقَ الرؤية الصحيحة وسط الضباب الكثيف الذي أحدثه دخان المعارك ضدَّ الإسلام والمسلمين.

وتتَّصل تحليلاته وتعليلاته بوحدة فكرته النابعة مِن القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو شبيه في تفسيره لفلاسفة التاريخ.

وكانت أهمُّ الكوارث التي أصابت المسلمين في مقتل هي:

أولاً: تضافُر القوى اليهودية والصليبية للقضاء على الخلافة العُثمانية باعتبارها التجسيد الحي للأمة الإسلامية وقتذاك، فأخذ الغرب يَقتطع أجزاءها، فاقتطعَت روسيا منذ عهد كاترين سنة ١٧٦٢ – ١٧٩٦م بعض الأراضي والولايات، ثم توالت بعدها الحملات العسكرية الاستعمارية؛ فهاجم نابليون مصر عام ١٧٩٨م، ثم احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠، وتونس عام ١٨٨١، ومراكش عام ١٩١٢، كما احتلَّت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١، وكانت الدول متَّفقة على اقتسام ميراث السلطنة العُثمانية عند زوالها من الوجود، فكانت بريطانيا تطمَع في بترول الموصِل وضمان إنشاء خطٍّ ثانٍ للهند، وهو خط بريٌّ يمتدُّ مِن فلسطين إلى الخليج الفارسي.

وكانت فرنسا تُجاهر بأنها ستطيب استقلالها الاقتصادي بما تَجنيه مِن القطن في حلب، ومِن الحرير في لبنان، والصوف في سوريا، وكانت إيطاليا مُقتَنعة بالاستيلاء على القسم الغربي من الأناضول، وكانت روسيا تطمع في قسم مِن تراقية والآستانة وأرمينيا وكردستان.

كما احتلَّت بريطانيا عدن عام ١٨٣٩ وبسطَت حمايتها على الحج والمحميات مِن حدود اليمن الجنوبية إلى شرق الجزيرة، وكان الإنجليز قد استولوا على الهند قبل ذلك، وانتزعوا باستعمارهم لها سيادة المسلمين، ثم استولوا على مصر عام ١٨٨٢، وعلى السودان عام ١٨٩٨، واستولَت هولندا على جزر الهند الشرقية، وحُوصرت أفغانستان تحت الضغط الإنجليزي والروسي، كما حوصرت إيران، ولم يكتفِ الغربيون بإشعال الثورات في داخل الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الإسلامية التي تمثِّل المسلمين، بل حرَّضوا شعوب البلقان على الثورة منذ عام ١٨٠٤ م، وأمدُّوهم بالمساعدة حتى انفصَلت عن الخلافة سنة ١٨٧٨، كما حرَّضت اليونان على الثورة منذ عام ١٨٢٠ حتى استقلَّت اليونان عن تركيا عام ١٨٣٠، ولم يَكتفِ أهل الغرب بذلك، بل شجَّعوا الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب، وحرَّكوا الثورة العربية بواسطة عملائهم؛ كلورنس وجلوب، وأثاروا فِتنَة القوميات والعصبيات الإقليمية؛ بغرض التفريق والتفتيت.

ثانيًا: انتهَت حركات التطويق والإعارات والتفتيت بإنهاء وجود الدولة الإسلامية في شكلها الأخير – ويعني بذلك الخلافة العثمانية – على يد مصطفى كمال أتاتورك، وكان للفتنة اليهودية دورها في سلسلة مُحكمة الحلقات.

وأخيرًا ظهر رأس الرمح الموجَّه للقدس بيد تيودور هرتزل، الذي ظلَّ ست سنوات كاملات يُحاول بجهد متوصل ورجاء المتوسِّل الملِحّ أن يتمكَّن مِن مُقابلة السلطان عام ١٩٠١؛ ليضع خدمات اليهود في خدمة الدولة؛ تمهيدًا للحصول من جلالته على تصريح لصالح اليهود.

وعندما رفَض، أخذوا يتحيَّنون الفرص مع السعي الذي لا يهدأ، وكتب يقول: "إن الأمور تتأزم في تركيا، إذا زاد هذا التأزم بخصوص المسألة الشرقية وانتهى إلى حلٍّ يَقضي بتقسيم تركيا في المؤتمر الأوربي، فقد نتمكَّن مِن أخذ قطعة أرض محايدة لأنفسنا".

ولم تكن هذه الأرض بطبيعة الحال سوى فلسطين التي وصلوا إليها عن طريق القسطنطينية، وإذا كان هناك مَن يشكُّ بهذه الواقعة، فعليه قراءة بروتوكولات حكماء صهيون، واستيعاب الرسم الرمزي لها المشبه بالأفعى؛ حيث تظهر القسطنطينية كأنها المرحلة الأخيرة لطريق الأفعى قبل وصولها إلى أورشليم.

وكان الأخطبوط اليهودي يعمل في دأب مستغلاً أحوال العالم الإسلامي المنهارَة؛ ليَخطو الخطوة تلو الأخرى؛ ولهذا نرى تلاحُق الأحداث وصِلَتها بعضها ببعض؛ فقد انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال بقيادة هرتزل عام ١٨٩٧، وتلاه عام ١٩١٦ عقد معاهدة "سايكس بيكو" بين بريطانيا وفرنسا؛ لاقتسام بلاد المسلمين التي كانت تابعة للخلافة.

وفي نفس العام قامت الثورة العربية بقيادة "الشريف حسين"؛ للتخلص مِن حكم الأتراك واستقلال البلاد العربية، فكانت نتيجتها وبالاً على العرب والمسلمين، وفي عام ١٩١٧ صدر وعد بلفور ليمنَح اليهود حق إنشاء وطنٍ قوميٍّ لهم في فلسطين. وفي عام ١٩١٨ انهزمت تركيا واحتل الإنجليز فلسطين.

وكان الشيخ مصطفى صبري وهو يؤلف كتابه "النكير" يرقب هذه الأحوال، ويُحذِّر مِن فتنة اليهود، موجِّهًا الأنظارَ إلى استثنائهم في المعاملة دون باقي الأتراك.

ولا يُدهشنا بعد ذلك – إزاء فداحة الخطب – أن يعبِّر عن إلغاء الخلافة، فيَصفها بأنها بمثابة (طعن الدين من الداخل)، وقد ثبت أنْ أصاب الحقيقة، فما استطاعت الأصابع اليهودية الامتداد إلى القدس بخاصة – وفلسطين بعامة – إلا على أشلاء الخلافة العثمانية.

أضفْ إلى ذلك تحذيره مِن إثارة النعرات القومية، والنزعات الإقليمية، والعداوات بين المسلمين، وهنا تظهر أيضًا صحَّة توقُّعاته عندما عارضَ فِكرة القومية الطورانية، وسخر مِن شعر (ضياء كوك آلب) الذي كان يتغنَّى به، فأخذ أتباعه يَعدُّونه قرآنَ الترك.

فماذا حدث بعده؟!

لقد نجح الاستعمار بنوعيه الشرقي والغربي في تفتيت الجسد الواحد، وحوَّله إلى دول ودويلات لكل منها حاكم وعلَم ونشيد وحدود جغرافية مصطنَعة، وغزاها بأفكار القومية والوطنية، فأصبح ولاء الأمة إما

لأشخاص الزعماء والقادة ورجال الحكم والسياسة، أو للأفكار والمذاهب والفلسفات الواردة، وبذلك حوَّل الشعوبَ الإسلامية عن الولاء الوحيد الذي يَنبغي أن تخضع له دون سواه، وهو الولاء لله الواحد القهار، واتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولكي تنسى هدفها الأساسي المتضمّن للآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتسعى جاهدة لتجعل كلمة الله – تعالى – وحدها هي العليا.

واستطاع المؤلف بحكم معرفته بما يَدور حوله مِن أحداث – راقبَها وشارَك فيها – أن يَربط الأسباب بالمسبّبات، كذلك أراد بحكم معرفته بشخصية مصطفى كمال جيدًا، أن يفتَح أعين المسلمين على ما يُراد بالإسلام، ومكَّنتْه حصيلتُه الوافرة مِن المعرفة التاريخيَّة وخُطط أعداء المسلمين امتلاك القدرة على التعليل والتفسير، بدلاً مِن أن يَعيش الأحداث مُنفصلة في الزمان والكون، فأخذ يقارن بين خطوات الكماليّين وما فعلته الثورة الفرنسية قبلهم، ويُحلِّل الدوافع الكامِنة وراء التصرُّفات التي بدَت في ظاهرها إصلاحية جزئية، أو انتصارات مؤقَّتة، فخدعَت الكثيرين مِن معاصريه، ولكنها لم تخدعْه؛ ولهذا جاءت الحوادث كلها مؤيِّدة لصدق حدسه».

وقد حوى كتابه (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) خلاصة نظرته إلى التحولات السياسية، كما تضمن زبدة أفكاره وآرائه السياسية والعلمية. وكان يهدف من وراء كتابته إلى الدفاع عن عقائد الإسلام وأصوله الفكرية بأسلوب علمي رصين يدفع الشبه ويقيم الحجج. وقد كشف في الكتاب عن العديد من المؤامرات التي حيكت ضد الإسلام على صعيدين متوازيين: المواجهة الحربية التي تعرض لها من خلال هجمات الغربيين، والتحديات الفكرية العقدية التي تنشر فكر الإلحاد والتحلل الأخلاقي. كما بيَّنَ أهمَّ عماد في الفكر الإسلامي وهو الدليل العقلي، وقارن بين المنهج الإسلامي في المعرفة والمناهج التي اتبعها المثقفون والفلاسفة الغربيون. فبرهن بأن الدليل العقلي مقدم على الدليل التجريبي، وتعمق في مناقشة الأدلة على وجود الله ورد شبه النافين من فلاسفة الغرب.

رحم الله تعالى شيخ الإسلام مصطفى صبري المجاهد العالم المقدام، الذي كانت كتاباته المنارات التي اهتدى بها أجيال الصحوة والعودة إلى الهوية، بل كانت كتاباته هي الهوية، كما كانت الصخرةَ التي وقفت عاتية في وجه المد الفكري والعقدي المنحرف القادم من وراء البحار...

اللهم اجزه عنا خير الجزاء، وهيئ لنا من أمرنا رشدا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.